

متى وكيف أخترع الشعب اليهودي

د. محمد عبد العزيز ربيع

هذا العنوان هو موضوع كتاب صدر حديثاً في إسرائيل بالعبرية، وأثار ضجة كبيرة في المجتمع اليهودي، وقام الأستاذ الجامعي والمؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند بتأليفه. وبسبب ما أثار الكتاب من تساؤلات وما جاء فيه من حقائق علمية وتاريخية تنفي وجود شعب يهودي في الماضي وفي الحاضر، فإن جريدة ها آرتس الإسرائيلية قامت بإجراء مقابلة مع المؤلف نُشرت بالإنجليزية على موقع الجريدة على الإنترنت يوم 21-3-2008 تحت عنوان "تحطيم أسطورة وطنية لشعب" (Shattering a National Mythology). ويقوم الأستاذ الذي يعمل في جامعة تل أبيب الدكتور ساند من خلال تلك المقابلة بتدمير حكايات شعبية وكشف أكاذيب عدة، ومنها حكاية سبي اليهود على أيدي الرومان وتشتتهم في كافة بقاع الأرض، وهي الحكايات والخرافات التي لفقها مؤسسو الحركة الصهيونية لتبرير قيامهم باستعمار فلسطين واستيطان أرضها وطردها منها. إلا أن زوبعة النقد والغضب العارمة التي أثارها المقابلة في الأوساط الأكاديمية والسياسية أجبرت الجريدة على سحب تلك المقابلة ولم يكن قد مضى على نشرها سوى أسبوعين. ولذا فإن من يريد الحصول على نسخة من المقابلة بلغتها الأصلية سوف لن يكون بإمكانه الحصول عليها من موقع الجريدة، ولكن بإمكانه الحصول على نسخة منها من موقعنا المذكور أدناه، حيث سيجدها في زاوية مشاركات خارجية.

يقول الدكتور ساند أن اليهود الذين يعيشون اليوم في فلسطين وفي أماكن أخرى من العالم ليسوا من نسل اليهود الذي سكنوا في فلسطين في العهود القديمة التي رافقت وسبقت ظهور المسيحية، وإنما ينحدرون من شعوب عديدة مختلفة الأصول والأعراق اعتنقت اليهودية عبر التاريخ وكانت تسكن أساساً في منطقة البحر الأبيض المتوسط وفي المناطق المجاورة. ومن نسل الجماعات التي اعتنقت اليهودية قديماً، جاء يهود اليمن ويهود شمال أفريقية ويهود أوروبا الشرقية. وهذا يعني أن يهود العالم، وحيث أنهم لا يشكلون شعباً واحداً، لا يتمتعون بأي حق من الحقوق الوطنية التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة وتعترف بها، ومنها حق إقامة دولتهم على أرضهم، وحق الاستقلال والسيادة الوطنية.

يقول الدكتور ساند أن الخرافة التي اخترعها الصهاينة الأوائل فيما يتعلق بوجود شعب يهودي قديم دفعتهم لممارسات عنصرية ضد الآخر، حتى ضد اليهود الذين يختلفون معهم في الرأي، وذلك على ما يبدو لطمس الحقيقة وعزل الأكنوبة عن مجهر العلم. "لقد مرت أيام كان فيها كل من يقول بأن اليهود ينتمون لشعوب ذات أصول غير يهودية يتعرض فوراً للاتهام بمعاداة للسامية". إن اليهود الذين تصفهم الحكاية الصهيونية بأنهم شعب واحد عاش في المنافي في عزلة عن الغير، وأنه "تاه وتشتت وعبر بحارا وقارات ووصل نهاية الأرض، ثم عاد مع ظهور الصهيونية بأعداد كبيرة إلى الوطن اليتيم"، ليست إلا "أسطورة شعبية" لا أساس لها من الصحة. إن محاولة اختراع شعب يهودي دفعت مؤرخو الحركة الصهاينة إلى كتابة تاريخ يصف اليهود بأنهم شعب تشكل منذ بدايات التاريخ، وأن "البراعم الأولى للقومية اليهودية تفتحت في ضوء الشعاع القوي الذي جاء من أسطورة مملكة داود". وفي نفيه لهذه الأسطورة، يقول الدكتور ساند أن فكرة الشعب اليهودي ظهرت في القرن التاسع عشر فقط، وذلك حين قام بعض المثقفين من يهود ألمانيا، متأثرين بالحركة القومية الألمانية التي ألهبت حماس الجماهير، بالعمل على اختراع شعب يهودي حديث. ومنذ تلك الأيام "بدأ المؤرخون اليهود بكتابة كتب تصف تاريخ اليهودية على أنه تاريخ شعب كانت له مملكة، وأنه تحول إلى شعب من الضائعين، وعاد أخيراً إلى موطنه الأصلي".

كانت بداية البحث، كما قال الدكتور ساند، هي الاطلاع على بعض كتب التاريخ الحديثة للتعرف على الطريقة التي تم بها اختراع حكاية الشعب اليهودي، لكن التناقضات التي وجدها في تلك الكتب كانت كثيرة، مما دفعه

لمواصله البحث دون معرفة مسبقة بنهاية الطريق ولا بنتائج البحث المتوقعة. ولهذا "عدت إلى الكتب القديمة وحاولت تحليل المراجع الأصلية التي اعتمد عليها مؤلفو العصور القديمة وما كتبه عن التحول إلى اليهودية"، أي ما كتبه عن التبشير اليهودي ونشاطات إقناع الغير من الناس بترك دياناتهم واعتناق اليهودية. ولقد كانت دهشة الدكتور ساند كبيرة جدا حين اكتشف أن تاريخ اليهود وتاريخ اليهودية كما كتب في القرنين الأخيرين لا أساس له من الصحة، بل ويتناقض تناقضا تاما مع ما جاء في الكتب اليهودية والمسيحية القديمة.

وهنا يتعرض الدكتور ساند إلى حكاية "الشتات" والسبي التي يعتبرها أيضا قصة مختلقة لم تحدث إطلاقا. تقول مقدمة إعلان الاستقلال الذي صدر في عام 1948 عن زعماء الحركة الصهيونية أن اليهود، "وبعد أن تم تهجيرهم بالقوة من البلاد بقوا مخلصين لها طوال فترة وجودهم في الشتات، وأنهم لم يتوقفوا قط عن الصلاة والأمل في العودة إليها واستعادة حريتهم السياسية". إن اختراع حكاية السبي والتهجير كانت ضرورة "للتشكيل ذاكرة جماعية طويلة تتخيل شعبا أو قوما ينحدر مباشرة من الناس الذين عاشوا في زمن ظهور الإنجيل". لكن دهشة الدكتور ساند كانت عظيمة حين اكتشف أنه لا توجد كتب قديمة ولا مراجع علمية تحدثت عن السبي والتهجير، والسبب في ذلك "أنه لم يبق أي طرف بتهجير سكان تلك البلاد. إن الرومان لم يطردوا أحدا، وإنه لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك حتى ولو أرادوا".

وفي إجابة على سؤال حول ما إذا كان الفلسطينيون هم في الحقيقة سكان البلاد الأصليين، ما دام أن الرومان لم يقوموا بطرد السكان وتهجيرهم، قال ساند: "لا يمكن أن يحافظ شعب على نقائه العرقي عبر آلاف السنين.. لكن الصهاينة الأوائل، وحتى الثورة العربية (1936-9) كانوا يعرفون أنه لم يكن هناك سبي ولا تهجير، وأن الفلسطينيين ينحدرون من سكان البلاد الأصليين.. حتى إسحاق بن تسيقي، ثاني رئيس لدولة إسرائيل، كتب في عام 1929 يقول إن الغالبية العظمى من الفلاحين والمزارعين لا تعود أصولهم إلى العرب الذين قاموا بفتح تلك البلاد، وإنما إلى من هم أقدم من ذلك بكثير، إلى الفلاحين اليهود الذين كانوا كثيرين وشكلوا أغلبية الناس الذين قاموا ببناء تلك البلاد".

إذا كان اليهود لم يطردوا من بلادهم ولم يتشتتوا، فكيف ظهر ملايين اليهود حول منطقة البحر الأبيض المتوسط؟ كان هذا هو السؤال التالي الذي حاول للدكتور شلومو ساند الإجابة عليه، إذ قال "إن اليهود لم ينتشروا، إنما الديانة اليهودية انتشرت. لقد كانت اليهودية ديانة تبشيرية. وخلافا للمتعارف عليه شعبيا، كان هناك تعطش كبير لنشر اليهودية وإقناع الغير بالتحول عن دياناتهم إليها.. لكن بعد انتصار المسيحية في القرن الرابع الميلادي، توقفت عملية التبشير في العالم المسيحي، وقامت أعداد كبيرة على ما يبدو بالتحول من اليهودية إلى المسيحية. إلا أن عملية التبشير استأنفت نشاطاتها في المناطق وبين الناس الذين اعتنقوا ديانات وثنية مثل اليمن وشمال افريقية. ولو أن اليهودية لم تتوسع في تلك المرحلة ولم تستأنف نشاطاتها التبشيرية، لبقيت اليهودية ديانة ثانوية، أو لكان من الصعب عليها أن تعيش".

إذن من أين جاء يهود اليوم، وما هي الجذور العرقية التي ينتمون إليها، وإلى أي بلاد تعود تلك الجذور؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه اعتمادا على دراسة وتحليل واستنتاجات الدكتور شلومو ساند. وبعدها سنحاول تقييم أهمية هذه الاستنتاجات والحقائق العلمية والتاريخية وتحليل تبعاتها على مجمل الصراع العربي الإسرائيلي وعلى مستقبل "عملية السلام" وواجب العرب عامة والفلسطينيين خاصة في المرحلة القادمة، وذلك في مقالنا القادم غدا تحت عنوان: "يهود فلسطين وأرض الشتات".

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com